الشـــاعر الفـــارس

أبو محجن الثقفى

بقلم محمد محمد راشد

من خريجى دار العلوم

منزلته : فارس لم ينصفه التاريخ ، وقد كان جديراً أن يذكره بجانب خالد ابن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهما من أبطال العرب ، وسنرى فى حديثنا عنه أنه حقيق عليه الظهور ، جدير بالذكر والثناء . وهو إن انتقصه المؤرخون حقه فقد أعطاه الأدباء نصيباً غير منقوص من عنايتهم ، فذكره ابن سلام فى طبقات الشعراء ، وكذلك ابن قتيبة . وله ديوان مخطوط بدار الكتب المصرية شرحه أبو هلال العسكرى ، وكتب له الأستاذ المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ترجمة منقولة عن الشرح المذكور ، وترجم له صاحب الأغانى فى الجزء الحادى والعشرين من أغانيه .

نسبه ونشأته : يكاد يتفق الرواة فى نسبه ، فهو عبد الله عمرو بن حبيب ، من ثقيف ، وفد مع وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع من الهجرة ، وأسلم مع من قدم وأدرك عصر أبى بكر وعمر ، وعده صاحب الأغانى وغيره من المخضرمين . وعند موقعة القادسية يخفى ذكره بين ثنايا التاريخ .

نشأ أبو محجن فى الطائف فى الجنوب الشرقى من مكة ، وقد اشتهرت بجودة مزارعها وطيب هوائها وخصوبة أرضها ، وكثر بها العنب والزبيب ، وكانت مصيفا للمترفين ومسكنا لثقيف التى أنجبت شعراء مجيدين ، وقادة محنكين ، منهم أمية بن أبى الصلت ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وغيرهما .

غنى وثراء ، ونعمة وسراء ، وشرف أثيل ، ومجد أصيل ، وعنب وزبيب ـ بين

كل ذلك تربى أبو محجن فظهر ظهور فتيان العرب ، لاهيا ، لاعبا ، شاربا للخمر ، مدمنا إلى حد بعيد ، وبلغ عمر قوله :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنى بالفلاة فإننى أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

وقوله :

إن كانت الخمر قد عزت وقد منعت وحال من دونها الإسلام والحرج
فقد أباكرها ريا ، وأشربها صرفا ، وأطرب أحيانا فأمتزج

فحده عمر حد الشرب فلم يزدجر ، وشرب فحده ، حتى حد سبع مرات أو ثمانيا ؛ ولما يئس عمر رضى الله عنه من إصلاحه ، وضاق به ذرعا ، قرر أن ينفيه فى جزيرة (حضوضى) وكانت منفى أمثاله من الخلعاء المستهترين وبعث معه حرسيا هو ابن جهراء (كان أبو بكر يستعين به على مثل أبى محجن) وأوصاه ألا يأخذ سجينه سيفا معه . ولكن أبا محجن يعمد إلى حيلة عجيبة إذ يحمل غرارتين ملتا دقيقا ، وجعل نصل سيفه فى غرارة وجفنه فى أخرى ، ودفنهما فى الدقيق ، حتى إذا لقيا من سفرهما نصبا جلسا للغداء ، فقام الثقفى يوهم أنه يخرج دقيقا فأخرج سيفه ووثب على الحرسى فخرج يعدو على بعيره راجعا إلى عمر . وقال فى ذلك أبو محجن :

الحمد لله نجانى وخلصنى من ابن جهراء والبوصى[1] قد حبسا
من يركب البحر والبوصى معترضاً إلى حضوضى فبئس المركب التمسا

ويظهر أن نفسه قد ملت اللهو والعبث وأراد أن يلتحق بالمجاهدين فى سبيل الله الذين يقتلون ويقتلون ، فتوجه إلى القادسية حيث المسلمون والفرس فى حرب وكفاح .

ويذكر الرواة سببا لنفيه غير هذا فيقولون إنه كان يشبب بالشموس أخت الحجاج الثقفى ، وحاول النظر إليها فخانته الحيل ، فآجر نفسه من عامل يبنى بجانب منزلها وأطل عليها من كوة فى البستان وقال :

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها حرج من الرحمن غير قليل

(١) السفينة

فاستعدى زوجها عليه عمر فنفاه . وكل من السببين كاف لغضب عمر عليه ونفيه . ويقول بعض الناس إن عمر رضى الله عنه بعث إلى سعد بن أبى وقاص أن يحبس أبا محجن ويقيده ، وليس ذلك ببعيد . وعندنا أن سيرة أبى محجن ، وحبه للخمر ، وحده فيها مرات ، وقوله فيها الشعر الكثير كقوله :

وإنى لذو صبر وقد مات إخوتى ولست عن الصهباء يوماً بصابر

وقوله

ألا فاسقنى يا صاح خمراً فإننى بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم
وجد لى بها صرفا لأزداد مأثما فنى شربها صرفا تتم المآثم

كل هذا كاف فى حبسه . ومهما يكن من شىء فقد حبس أبو محجن وقيد ، وبقى مقرنا فى الأصفاد ، مكبلا فى الأغلال ، حتى كان يوم أرماث (يوم من أيام الفارسية) . وكانت بسعد جراحة حرمته القيادة وألزمته القصر فولى على الخيل خالد بن عرفطة واشتبك المسلمون والفرس وحمى الوطيس وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، عظم ذلك على الفارس المقيد فتوسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه ونذر إن سلمه الله أن يرجع إليها مقيدا فرفضت فقال :

كفى حزنا أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علىّ وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت مصاريع من دونى تصم المناديا
أرينى سلاحاً لا أبالك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
فإن مت كانت حاجة قد قضيتها وخلفت سعدا وحده والأمانيا
وقد شف جسمى أننى كل شارق أعالج كبلا مصمتا قد برانيا
فلله درى يوم أترك موثقا وتذهل عنى أسرتى ورجاليا
حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيرى يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا (١)

وهو شعر فارس أضرّ به القيد وآلمه الأسر ، تذهب نفسه حسرات على ما يرى يطلب فكاكا لينصر قومه ويعز جنده ويهزم عدوه . فلما سمعت سلمى الشعر

(١) الحوانى : جمع حانية ، وهى الحانوت .

المؤثر رقت له وأعطته البلقاء فرس سعد بعد إباء منها ، فامتطاها ونزل الميدان ؛ وهنا يقول ابن الأثير : . . . . حتى كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنتهم وكان يقصف الناس قصفا منكرا وتعجب الناس منه وهم لا يعرفون ، فقال قوم هو الخضر ، وقال آخرون لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا إنه ملك ، وقيل غير ذلك . وكان سعد يقول ، لولا محبس أبي محجن لقلت الطعن طعن أبي محجن والصبر صبر البلقاء ، حتى إذا انتصف الليل تحاجز العسكران وتوالى النصر للمسلمين وكتب لهم الفوز وانتهت القادسية بالفتح المبين ، ورجع أبو محجن مختالا فخورا قائلا فى ذلك :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أجودها سيوفا
وليلة قادس لم يشعروا بى ولم أشعر بمخرجى الرجوفا
فإن أحبس فقد عرفوا بلائى وأن أترك أذيقهم الحتوفا

رجع وقد أوفى بما عاهد سلمى عليه فوضع رجليه فى القيد ، ولما أصبح سألته سلمى فيم حبسك ؟ قال كنت صاحب شراب وأنا امرؤ يدب الشعر على لسانى . فأخبرت سعدا خبر أبي محجن وصالحت زوجها وكانت عليه غاضبة ، فأطلقه سعد وقال له : لست ضاربك أبدا . فقال أبو محجن : وأنا والله لست شاربها أبدا ، وإنما كنت أشربها لما كنتم تطهروننى بالحد وقال :

ألم ترنى ودعت ما كنت أشرب من الخمر إذ رأسى لـك الخير ـ أشيب
فلما دَرَوْا عنى الحدود تركتها وأضمرت فيها الخير والخير يطلب
وكنت أروّى هامتى من عقارها إذ الحد مأخوذ وإذ أنا أضرب
وقال لى الندمان لما تركتها أهذا الجد منك أم أنت تلعب
وقالوا عجيب تركك اليوم قهوة كأنى مجنون وجلدى أجرب
سأتركها لله ثم أذمها وأهجرها فى بيتها حيث تشرب

وحبيب الينا هذا الشعر الطريف الذى تخف الأذن لسماعه ويتحرك اللسان ليعجل به ، وأغلب ظنى أنه قال هذا الشعر وهو فى حال بين الإقدام والاحجام والأمل واليأس ، والرغبة والرهبة ، لأنه ما ودع الخمر وما قلاها إلا حينما اشتعل

رأسه شيبا ، ثم هو يدعى أنه كان يرتوى منها ما دام يطهر بالحد ، وليس هذا بمانعنا من اللائمة عليه ثم ماله يقول ، وأضمرت فيها الخير ، لقد دل على أشياء فى نفسه أو أنه فى صراع عنيف بين عقله وشهوته وأنه متردد خائف لا يقوى على تركها البتة ، ولكن كل مافى طوقه أن يقول ، سأتركها لله ثم أذمها ، وهذا الشعر طريف حقا ، وبخاصة قوله ، وقال لى الندمان ، فهو يمثل حالة بين الندامى عند ما يعلمون أن نديما منهم قد نأى عنهم وهجر شرابهم ورجع إلى ربه ؛ حينئذ يتساءلون عن النبأ العظيم . أهذا لجد أم لهزل ؟ ويملؤهم العجب كأنه مجنون أو أجرب . وهذا تشبيه جميل رائع ، وتمثيل صادق لما بين المتنادمين ومن على شاكلتهم إذا ترك أحدهم عادة مألوفة .

ويظهر أنه ترك الخمر حقا وتاب توبة نصوحا ؛ كما شهد بذلك على رضى الله عنه فيما يأتى . وقال فى ذم الخمر :

يقول أناس : اشرب الخمر إنها ... إذا القوم نالوها أصابوا الغنائما
فقلت لهم مهلا كذبتم ألم تروا ... أخاها سفيها بعد أن كان حالما
وأضحى وأمسى مستخفا مهينا ... وحسبك عارا أن ترى المرء هائما

وقال :

أتوب إلى الله الرحيم فإنه ... غفور لذنب المرء مالم يعاود
ولست إلى الصهباء ماعشت عائدا ... ولا تابعا قول السفيه المعاند
وكنت وقد أعطيت ربى موائقا : ... أعود لها والله ذو العرش شاهدى
سأتركها مذمومة لا أذوقها ... وإن رغمت فيها أنوف حواسدى

شعره : له شعر فى الغزل لكنه لايشرف به فقد كان يشبب بابنة حبر يهودى وقال فيها :

تقول ابنة الحبر اليهودى ما أرى ... أبا محجن إلا وللقلب ذاكر
فإن ابنة الحبر اليهودى تيمت ... فؤادى فهل لى من سمية زاجر

وشبب بالشموس السابقة الذكر ؛ وأكثر شعره فى الخمر وقد ذكرنا أغلبه وتحدثنا عنه وبقيت له قصيدة كانت تعجب عمر رضى الله عنه ، وأعجبت عليا

ومعاوية فيروى صاحب الأغانى أن ابن أبى محجن دخل على عبدالملك (أو معاوية) فقال أليس أبوك الذى يقول « إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة » فقال له لو شئت لذكرت ما هو أحسن من هذا فقال وماذا ؟ قال :

لاتسألى الناس عن مالى وكثرته ... وسائلى القوم عن دينى وعن خلقى
قد يعلم الناس أنا من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديدةِ الفَرِق
أعطى السنان غداة الروع نحلته ... وعاملُ الرمح أرديه من القَلَقِ
عف الإياسة عما لست نائله ... وإن ظلمت شديدُ الحقد والحنق
وأكشف المأزق المكروب غمته ... وأكتم السر فيه ضربة العنق
قد يقتر المرء يوما وهو ذو حسب ... وقد يثوب سوام العاجز الحمق
قد يكثر المال يوما بعد قلته ... ويكتسى العود بعد الجدب بالورق
وقد أجود وما مالى بذى فَنَعٍ ... وقد أكر وراء المحجر البَرِقِ
واهجر القول ذا حُوب ومنقصة ... وأترك القول يدنينى من الرهق

فقال معاوية . إن كنا أسأنا لك القول فإنا لنحسن لك الصفد ، وأكثر له العطاء . وقد سأل عمر عليا : من أشعر الناس ؟ قال الذى أحسن الوصف . وأحكم الرصف ، وقال الحق . قال: ومن هو ؟ قال: أبو محجن فى قوله لاتسألى الناس . قال عمر أيدتنى يا أبا الحسن أيدك الله ثم قال على صدق فى كل ما قال لولا آفة كانت فى دينه من حبه الخمر وقد تركها أنفا والأنف من الكرم والكرم من الايمان لقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد ذكرنا له هذا الشعر القوى الرصين المحكم . وإن كان القدماء يعجبون بمثل قول القطامى : « إنا محيوك فاسلم أيها الطلل » أو بمثل : إنا محيوك ياسلمى فحيينا . فانا لنعجب بمطلع قصيدة أبى محجن : « لاتسألى الناس عن مالى وكثرته » ولقد افتتح الشاعر قصيدته بما يقوى به دينه وقد طال اتهامه فيه ثم انتقل إلى فخر بشجاعته واعتزاز بقوته إذا شخص بصر الجبان خوفا وهلعا . وقوله « أعطى السنان » معنى جميل ، فهو يقدم لسيفه نحلا من القتلى يوم الفزع و يروى رمحه دما . وأجمل منه أن يطعن الطعنة الواسعة عن صنعة فتتسع وتفهق دما ، فمن هولها لا يحس لها

نبض ولسعتها لا يسبر لها غور . ثم وصف نفسه بالعفة فى موضعها والثورة على ظالمه والنقمة منه وأنه رجل يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويكتم السر ثم أتى بحكم بالغة فى وصف الدهر الذى يقل ويكثر ويغنى ويفقر ، وأنه يقول مالا إثم فيه ولا غرم .

وشاعرنا مقل جيد ويظهر أنه قال قصيدته هذه التى حفظها الرواة عند ماذهبت عنه الغواية وصحا قلبه وأقصر باطله ، وعرى عنه أفراس الصبا ورواحله ، فجادت الحكمة بين ثناياها ، ودلت على نضج شعره ، ورسوخ الملكة عنده . وقد يظن كثير من الناس أننا قصرنا فى ذكر أشعاره ولكنا قلنا إنه مقل وما بقى له من شعره لا يستحق الذكر .

أعرف : كان شريفا كريما جوادا ذا مروءة وشجاعة نادرة ورأى سديد وذكاء وعفة وأنفة وخلق كريم ، وحسبنا منه أن يكون بطل القادسية المغوار وفارسها المشهود له بالنصر المبين وهو معدود من أولى النجدة والبأس الشديد والممهد لسعد السبيل والفاتح له الطريق والشاعر المفلق والفارس المجهول ؟

محمد محمد راشد